القصيدة الجزائرية
من الدعوة إلى الإصلاح إلى الدعوة للثورة

بقلم
أ. د / كمال عجالي
أستاذ بقسم الأدب العربي ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة. الجزائر

ملخص

يتناول الباحث في هذه المقالة بدايات القصيدة الإصلاحية في الشعر الجزائري الحديث كما يتطرق إلى أهم الموضوعات التي عالجتها إلى أن وصلت بها إلى ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954. كيف كان ذلك ؟ ذلك ما سنعرفه في هذه المقالة.

Résumé:

Le chercheur traite dans cet article, Les débuts de l'épopée réformatrice, dans la poésie algérienne contemporaine, il cherche aussi dans les sujets les plus importants qu'elle a traités jusqu'au révolution du premier novembre 1954.Comment cela a existé ? c'est cela qu'on va connaître dans cet article.

إن الباحث في الأدب الجزائري يلحظ أن الدعوة الإصلاح من قبل الشعراء كان مبكرا إذ يرجع إلى نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين. ويمثل هذه الدعوة المبكرة الشيخ المولود بن الموهوب [1] الذي كان سباقا إلى مهاجمة الطرقية وما فَشَا فيها من أفكار وخزعبلات لا علاقة لها بالدين الصحيح، وكذلك الشاعر المصلح الصالح بن مهنا الذي قام بدوره بشنّ حرب ضروس على المنحرفين من رجال الدين وأئمة المساجد ومن سار في فلكهم . وقد كانت بينه وبين الشاعر عاشور الحنفي مساجلات عديدة حيث انتصر هذا الأخير للطرق الصوفية ومجّد أفكارهم ومدح مشايخهم

وأفرط في ذلك وغالى[2] ، فرد عليه ابن مهنا بقصائد عديدة. وكذلك الشيخ حمدان لونيسي ، ومصطفى بن الخوجة وعبد الحليم بن سماية غير أن الملاحظ على هؤلاء الشعراء الإصلاحيين الذين هاجموا الخرافات والبدع ودعوا إلى الرجوع إلى الدين الصافي من منابعه الأصلية القرآن الكريم وصحيح السنة الشريفة . الملاحظ عنهم أن معظمهم كان من الموظفين في المؤسسات التي سيطرت عليها فرنسا ، فكانوا مقيدين بالوظيفة ولم ينطلقوا في الإصلاح إلى أبعد المدى ، فقد كانت أمامهم خطوط حمراء لا يمكنهم تجاوزها بأي حال من الأحوال.

يقول الشيخ المولود بن الموهوب منتقداً بعض السلوكات المتفشية في المجتمع في كثير من الأفراد الذين لا يقدمون لفعل الخير إلا الكلام والجعجعة الفارغة التي تقدم ولا تؤخر ، يقول :

تأمل في زمانك إن فيه ... أناسا لا ترى من تصطفيه
إذا ما رمت جمعهم لأمر ... فكلهم يعين بفتح فيه[3]

ويقول في تشخيص مظاهر سلبية جدت في المجتمع:

صعود الأسفلين به دهينا ... لأنّا للمعارف ما هُدينا
رَمَتْ أمواجُ بحرِ اللّهو مِنّا ... أناساً للخُمور ملازمينا[4]

ثم خلف من بعدهم جيل آخر من الشعراء الإصلاحيين، ظهر منذ العشرينيات من القرن الماضي، بعد أن ذاعت الحركة الإصلاحية في كثير من المناطق إثر عودة كثير من المثقفين الجزائريين الذين درسوا بالمشرق العربي أو في الزيتونة والقرويين من أمثال الإبراهيمي والعقبي ومحمد خير الدين ومحمد العيد وأبي اليقظان والهادي السنوسي وسعيد الزاهري والعربي التبسي ومبارك الميلي والفرقد والطرابلسي وإبراهيم بن نوح ومفدي زكريا ورمضان حمود وغيرهم كثير، أولئك الشعراء الذين أتحفوا الساحة الوطنية بقصائد إصلاحية وطنية سنوات عديدة في جرائد : المنتقد ، الشهاب، الإصلاح، البرق، الحق، وصدى الصحراء ؛ فهزت تلك القصائد الضمائر، وحركت الوجدان العربي المسلم في نفوس كثير من الجزائريين وخاصة حين عرفتهم بماضيهم المجيد ، ودعتهم إلى الأخذ بأسباب التطور ونبذ الجهل، وطلب العلم بفروعه (العلوم الدينية والعلوم المدنية) ، والأخذ بأسباب الحياة

الحرة الكريمة، بعيداً عن الخرافة والضلال وحياة الفقر والمرض والاتكال على ما لا يجدي ولا يفيد.

يقول الشاعر :

حي الجزائر ما دامت تحيينا ... وانهض بشعب قضى في جهله حينا
واعمل لخير بلاد طالما هضمت ... حقوقها واتخذ من حبها دينا
وسر حثيثا على تلك الطريق إلى ... حيث المعارف وحيث العلم يهدينا
تلك الصحافة لو تندى الأكف لها ... لا شيء عنها مدى الأيام يسلينا
مرحى لها ولمن قاموا بواجبها ... يدعوننا علنا للحق مصغينا
أخزى الإله أناسا لا خلاق لهم ... زعانف بخسيس العيش يرضونا[5]

وحين تكونت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 التي أصبحت تجمعا منظما يمثل حزبا إصلاحيا على نحو ما ، له منهجه ومبادئه وأهدافه الخاصة »[6] ترعرعت القصيدة الشعرية في أحضان هذه الحركة، وناصرت رجالها وعبرت عن أهدافها ومشاريعها، وبرز شعراء كثيرون في ظل هذه الجمعية تطرقوا إلى موضوعات وطنية وإصلاحية عديدة.

ومن أبرز المحاور التي ركزت عليها القصيدة الجزائرية الإصلاحية التي كانت تسير في فلك الحركة الإصلاحية هي :

بعث الهوية العربية الإسلامية وإحيائها في لنفوس متمثلة المقولة المشهورة (الإسلام ديننا ـ العربية لغتنا ـ الجزائر وطننا)

يقول الشاعر محمد العيد :

وإنا لشعب يعلم الله أنه ... كريم حصيف الرأي مرتفع الكعب
سليل جدود نابهين أعزّة ... مغاوير شوس كالضراغم الغلب
ولكن عثا الحدثان في الشعب طاغيا ... عليه كما تطغى السيول على لعشب
فأصبح مغبونا من العيش مرغما ... على الهون مرهونا كيوسف في الجب[7]

ب ـ انتقاد كل انحراف وقع في المجتمع .

يقول ابن رحمون منتقدا الأحزاب والجمعيات التي زلّت بها القدم وابتعدت عن المصلحة العليا للوطن وجرت خلف الأهواء والأغراض الشخصية والحزبية الضيقة.

ولا تلومنّ من زلّت به قدم ... فالقوم همهم الألقاب والورق
ولا يقيم لواء الحق في وطن ... من كان ينقصه الإيمان والخلق[8]

ج ـ التركيز على فضح أحابيل الاستعمار ومؤامراته.

يقول الشاعر مصورا المدارس المغلقة والصحف المعطلة والضاد المضطهدة والزعماء الجزائريين المسجونين من طرف الاستعمار الذي يدَّعي أنه ينشر الحضارة والمدنية:

ويضيق بي رحب البسيطة إذ رأى هـذي البلاد فريسة الجشعاء
وأرى مدارسها يعطلها العدى ومكاتب المحتل في خيلاء
وأرى الصحافة في حصار دائم ورجالها في محنة وعناء
والضاد تمنع والسجون تفتحت يزجى إليها معشر الزعماء
وارحمتاه للضاد وسط بلادها و أرحمناه لحماتها السجناء[9]

د ـ المزج بين القضايا الوطنية والقضايا القومية (عربية وإسلامية).

لا تكاد تجد قصيدة في الشعر الجزائري تعالج القضايا الوطنية دون أن تكون متضمنة قضية عربية أو إسلامية ، وهذه ميزة في الشعر الجزائري الحديث؛ ذلك لأن الإسلام والعروبة في فكر الإنسان الجزائري المسلم وجهان لعملة واحدة يقول الدكتور عبد الله الركيبي « فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمرا واحدا »[10].

« وهناك قضايا عربية كثيرة عاشتها الجزائر في أدبها وفكرها وفي أعصابها وجهادها . منها قضية فلسطين واستقلال أجزاء من الوطن العربي كالسودان وليبيا وثورة مصر وإنشاء الجامعة العربية والمعارك الأدبية ومناسبات التكريم أو التأبين لعظماء الشرق من كتاب وشعراء وقادة مصلحين »[11].

يقول ابن العقون حول مدى تأثر الجزائريين بما تقاسيه فلسطين :

أما الجزائر فهي من مصابكم في حر نار الآسي تشكو لباريها
آه على أمة القدس التي بسطت للجار إحسانها وسل مجريها
آه على كاس ذل وهي ترشفها وعن صغار كآبة تقاسيها[12]

هـ ـ والحقيقة إن الدعوة إلى الثورة والجهاد في سبيل الله لاستقلال الجزائر عن فرنسا قد تناولها الشعراء الجزائريون بشكل لافت للنظر منذ الثلاثينات من القرن الماضي، حيث نجد محمد العيد آل خليفة في قصيدة له سنة 1937م يقول :

هلـم نعـارك فالحيـاة معـارك هلـم نقـاحم فالحيـاة مقـاحم
هلم نثر في المؤمنين جميـعهم دويا له مثل الرعـود دمـادم
إلى أن يقول :
أصـرح أحيانـا بقـصدي واضـحا وألحـن أحيانـا فهـل أنـت فـاهم
أراك يـا أخـي وسـنان حـالما تـيقظ إلى كـم أنـت وسـنان حـالم
تـيقظ ففـي دنيـاك أعظـم نهـضة تـضيق بمعناهـا اللغـى والتراجـم
وجاهد فإن الحـر مجـاهد وقاوم فإن الحر فيـها مقـاوم[13]

إن المتأمل في الشعر الجزائري يلحظ أن الدعوة إلى الجهاد والثورة من قبل الشعراء لم تكن مقتصرة على السلاح فقط بل دعوا إلى الثورة والجهاد بكل الوسائل حتى يتحقق الاستقلال.

فهذا ابن رحمون يقول :

جاهـد برأيـك مـا استـطعت ولا تحفـل ببعـد الـونى والقيـل والريـب
فإنمـا الكـسل العقـلي آفتـه أشـد مـن شـلل الأعـضاء والركـب
ألا ترى الكسل العقلي صاحـبه يفر من ثمرات الجد والتـعب[14]

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن القصيدة الجزائرية الحديثة قد لعبت دورا كبيرا في تعبئة النفوس وتهيئتها للقيام بالثورة التحريرية الكبرى، بفضل جهود رجال وشعراء الحركة الإصلاحية « الذين مهدوا لقيام نهضة فكرية وأدبية إن لم نقل ثورة ثقافية قبل أن يخوض الشعب الحركة الحاسمة مع المستعمر وبعد أن هيئوا جيلا وبنوه من الداخل بناء مكنه أن يخوض ثورة مادية بعد أن خاضها الأدباء من قبله » [15]

وهذا شيء طبيعي يتماشى مع منطق الأشياء وسنن الحياة « فكل الثورات الشعبية مرت حتما بمرحلة تعبئة وجدانية وغليان فكري تولى قيادتها جنود القلم والكلمة مستبسلين عن التزام لم يفرضه عليهم أحد» [16].

يقول الدكتور طه حسين :

« فالأدب يمهد للثورة وينشئها لأنه يثير النفوس ويبغض إليهم بعض أطوار الحياة التي يحبونها ويعرض عليهم مثلا جديدة يحببها إليهم ويزينها في قلوبهم .... » [17].

ويقول أيضا : « فالأدب يثور قبل أن تثور السياسة ، وثورة الأدب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة...

.... ولست أعرف ثورة سياسية كانت بالمعنى الحديث للفظ الثورة إلا وقد سبقتها ثورة أدبية عقلية هي التي أغرت الناس بها ودفعتهم إليها... » [18]

وهذا فعلا ما حصل في الجزائر إذ لم تقم الثورة التحريرية الكبرى إلا بعد أن عرفت ثورة إصلاحية مست جوانب عديدة من الحياة وصدق محمد العيد حين قال:

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعـ ـب وعادت عليه بالآلاء[19]

الخلاصة :

يتضح مما سبق أن القصيدة الشعرية في الأدب الجزائري الحديث انطلقت تناصر الفكرة الإصلاحية وتآزرها ، ثم تلاحمت معها سنين طويلة ، فأسهمت بذلك في خلق جو قابل للنهوض والانتفاضة، وصنعت بفضل ذلك جيلا مشبعا بالفكرة الإصلاحية، رافضا للواقع المقيت الذي كرسه الاستعمار الفرنسي، بعدها انطلقت الجزائر بفضل هذه الأرضية التي هيئتها القصيدة الشعرية في الآفاق والنفوس إلى كسر قيد الاستعمار والتغلب على جبروته في ثورة عارمة حولت الجزائر ومصيرها نحو الاستقلال والحرية ليلة أول نوفمبر من عام 1954 ، وتحقق بذلك لهذا الشعب حلمه بعد ثورة وحرب ضروس دامت أكثر من سبع سنوات ونصف توجت بالانعتاق من نير الاستعمار في 05 جويلية 1962م.

ـ الهوامش :

(1) انظر: محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج1 ، ص 134. وانظر كذلك د/ أحمد صاري ، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 7 وما بعدها. وكذلك انظر: بن شغيب ، أم الحواضر ، ص 312 وما بعدها.

(2) انظر: عاشور بن محمد ، منار الإشراف ، ص108 وما بعدها.

(3)محمد علي دبوز، نهضة الجزائر، ج1 ، ص141.

(4) مس ، ص ن.

(5) السنوسي ، شعراء الجزائر، ج1 ، ص .

(6) محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، الكتاب الثالث، ص9ـ10.

(7) محمد العيد ديوان ، ص 248.

(8) ابن رحمون ، الديوان ص 133.

(9) مس، ص 137 ـ 138.

(10) د/الركيبي الشعر الديني ص680.

(11) د/أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 114. وكذلك انظر : محمد ناصر، الصحف العربية ، ص 73.

(12) ابن العقون ، الديوان ، ص20.

(13) محمد العيد، الديوان ، ص137- 139.

(14) ابن رحمون، الديوان ، ص79.

(15) كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، ص488.

(16) د/عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، ص157.

(17) د/طه حسين، خصام ونقد ، ص154- 155.

(18) م ن، ص 157.

(19) محمد العيد ، الديوان ، ص436.

ـ قائمة المراجع :

1- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1 ، المطبعة التعاونية، دمشق ط1/1965م.

2- أحمد صاري، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية، غرداية.

3- محمد المهدي بن علي بن شغيب ، أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة) مطبعة البعث، قسنطينة ، الجزائر 1400 هـ ـ 1980م.

4- عاشور بن محمد الخنقي، منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف وموالي هم من الأطراف، المطبعة الثعالبية، ط1، 1914م .

5- محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، 1332هـ المطبعة التونسية ط1، 1926.

6- محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، (الكتاب الثالث)، دار الأمة، ط1، 1999م

7- محمد العيد آل خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1979.

8- أبو بكر بن مصطفى بن رحمون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

9- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1981،1م.

10- د/حمد ناصر، الصحف العربية في الجزائر من 1847ـ 1939 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.

12- عبد الرحمن بن العقون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980.

13- كمال عجالي، الطيب العقبي أديباً، رسالة دكتوراه (مخطوط) كلية الآداب ، جامعة منتوري ، قسنطينة (97 ـ 1998).

14- د/عائشة عبد الرحمن،(بنت الشاطئ) قيم جديدة للأدب العربي الحديث والمعاصر مطبعة النهضة الجديدة ، القاهر ة ، 1966م.

15- د/طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت ، ط 8، 1978م.